على هامش « حادث الشام »

نحن المذنبون ! . . .

للأستاذ علي الطنطاوي

١

اهتزت الأرض لما كرث دمشق ، وزلزلت الدنيا لما أصابها ، وابيرت أقلام بواتر تناصرها في محنتها ، وازدلفت إليها الوفود تمسح جراحها ، وتامن جَرّاحها ، ولم تبق في المشرق والمغرب صحيفة لم تنل أخبارها ، وتصف حريقها ودمارها ، وأنا في فراشي قد ملكتني الحمى فلم أشارك قومي في جهاد ، ولم أبذل لهم (وطالما كنت بادلاً) قلمي هذا الضعيف ولساني .

وكنت أطل من شباكي على دمشق (وداري كما يعلم من يعلم من القراء تعلو عن دمشق ضاربة في الجبل مائتي متر) فأرى مساقط القنابل ، وأشاهد مواقع القذائف ، وأبصر النار تأكل بلدي الحبيب ، والرصاص يحصد حصداً قوي ، فأحس في أعصابي فوق الحمى حميات ، ولكني لا أقدر على شيء .

ولم أقرأ في هذه البرهة الطويلة مجلة ولا أبصرت (رسالة) ، ولا رأيت ممن وفد على دمشق من (الإخوان) الكرام أحداً ، ولا حضرت (وقد دعيت) لتكريمهم احتفالاً . قد قيدني المرض بفراشي فلا أستطيع له براحا ... وهذي أول ساعة أقدر فيها على القلم ، وأتمكن من خطامه ، رأيت فرضاً عليّ فيها فرض الاعتراف والوفاء ، أن أكتب للرسالة التي أحببتها محبة العاشق ، لا أصبر على فراقها ، ولا أطيق هجرها . وأحببت صاحبها وأجللته قبل أن أراه ، فلما رأيته بعد اثني عشر عاماً تشرفت فيها بمراسلته ، والكتب في رسالته ، وحضرت مجلسه ، ورتعت شهرين في جنة نبله وفضله ، وأخذت من ماله ومن أدبه ، ازددت له حباً وإجلالا . وما رأيت في مصر أديباً ، هو أعرب عربية ، وأنقى طوية ، وأقل لمصر عصبية ، وأخلص لبلاد العرب كلها نية ، من الثلاثة الأخيار : الزيات وعزام وخلاف . وإن في مصر لكراماً كثيرين وأدباء عرباً مخلصين ، وما شحت مصر بالرجال ولكني أشهد عما رأيت .

* * *

جلست لأكتب في محنة دمشق ، فرأيتها قد سارت بحديثها الركبان ، وامتلأت بها الآذان ، ومشت على كل لسان ، فكدت أدع القلم ، ثم قلت لنفسي ، لئن تأخرت اليوم فلقد كنت يوماً سباقة ، يوم هوت تحت السنابك (باريس) ، وقام كتاب (منا ...) يكونها ، وما يكون إلا لذات لهم فيها محرمة فقدوها ، ومفاسق خسروها ، وكنا وكان سيف فرنسا العادية مسلولا علينا ، فكتبت في الرسالة (٣٦٨) في ٢٢ يولية ١٩٤٠ كلمة قصيرة ولكنها كسنان الرمح لا يضره مع متانته قصره ، صغيرة ولكنها كالتنبلة إذا تفجرت دمرت ، ولقد شرقت شظاياها وغربت فأصابت فيمن أصابت مستشار المعارف الفرنسي ، حملها إليه بعض (الأذناب ...) ممن تبدل اليوم لأن الدهر تبدل ودار . فدعاني وكان بيني وبينه كلام لو أنا نشرته خفت ألا يصدقه من لا يعرف قائله ، من القراء . لا أقول ذلك تفرجاً ولكن ليعلم الناس ، أنا — بني الشام — ما ذللنا قط ولا خنعنا ، ولا أخافتنا فرنسا يوم كانت فرنسا وكان لها في الأرض سلطان ، وبين الأعزة الأقوياء مكان !

* * *

ولئن فاتني الكلام في (حادث الشام) فما فاتني أن أكتب (على هامشه) ، وإن لديّ صوراً ، وإن في يدي عبراً ، إذا وفق الله ووالت نشرها في الرسالة ، اجتمع منها كتاب . ولست أعيد ما قاله الكتاب ، ولا أحب أن أعرّف المعروف . ولقد فرغ الناس من الحكم على فرنسا ومدنيتها ، وخرست ألسن كانت تسبح بحمدها ، وتمجد حضارتها ، وما تحمد منها (وآباء القراء) إلا مطارح الهوى الفاجر ، ومسارح الفن الداعر ، وجفت أقلام كانت في أرضنا « جيشاً خامساً » وما حديث الجيش الخامس ببعيد ... فلم يبق إلا أن نسوق صوراً لا يراها إلا القريب المشاهد ، وعبراً لا يتنبه لها إلا الرقيب المفكر ، وأن ننذر قومنا يوماً أشد ، وخطباً أعم ، إذا لم يقطعوا أسبابه ، ولم يتلقوا بابه ...

وإن أول ما ينبغي أن نخرج به من هذا الذي كان أن نعلم

إن الله عادل لا يصيب قوماً إذا بما قدمت أيديهم ، وإن من بديع صنعه لهذه الأمة أن يبعث لها هذه الشدائد تنبهها من غفلتها كلما غفلت ، وتوقظها إذا نامت ، وإن من أسرار هذه التربية أن الابتلاء هو الامتحان ، وأن الله يمتحننا ليرى أننوز في الامتحان أم نكون من الخاسرين ... فتعالوا يا إخواننا نحاسب أنفسنا وننظر من أين أتينا ؟

أما أنا فلقد فكرت فرأيت أن الذنب ذنبنا ما هو ذنب الفرنسيين ، وأنك إن عانقت الحية فلدغتك فما بلام الحية بل تكون أنت الملوم ، إن الفرنسيين قد جروا على سنتهم ، واستجابوا لطبيعتهم ، فقاض إناؤهم بالذي فيه ، وما فيه إلا الطيش والخرق والغرور والتبجح وعشر أخر من هذه الصفات ، ولقد بلوناهم ربع قرن فما رأينا من حضارتهم إلا البارود والنار وآلات القتل والدمار ، ولا أبصرنا من فنهم إلا الفسوق والعري والاستهانة بالعرض وإشاعة الدمار ، ولا شاهدنا من قوتهم إلا العدوان على الأطفال والنساء والعجائز الكبار ، ولقد طالما تبدلت علينا الوجوه ، ولكن السنّة السنّة ، والطبع الطبع ، كل في الحماقة سواء .

ولكنا مع ذلك والياهم وقد نهانا الله عن موالاتهم ، وقد لناهم وقد منعنا ديننا من تقليدهم ، وتركنا بياتنا لرطانتهم وفضائلنا لأزيائهم ، وشريعتنا لقوانينهم ، ومساجدنا للاهيتهم ، والقادسية لأوسترلتز ، وعمر لنابليون ، ومكة لباريس ؟

نحن أعطيناهم هذا السلاح الذي قاتلونا به : جاؤونا بالخمور تسري أمعاءنا ، وتمزق أكبادنا ، فشربناها ودفعنا الثمن . وجاؤوا بالكتالوجات فيها الأزياء العارية التي تذهب فضيلتنا ، وتفسد شبابنا وبناتنا ، فعملنا بها وتركنا لها قرآننا ودفعنا الثمن . وجاؤونا بالأرتستات يخربن بيوتنا ، ويعرضن جسومنا ، ويسممن أرواحنا ، فهبطنا على أقدامهن ودفعنا الثمن ، وجاؤونا بكل بلية فيها الأذى وفيها الهلاك ، فدفعنا الثمن ، فأخذوه فجعلوا منه دبابات وطيارات ثم أتوا فقالوا هذا لجيشكم السوري . أليس جيشكم قلنا : بلى ، وهل في ذلك شك . قالوا : هاتوا ثمنه فدفعناه مرة ثانية ، فقاتلونا بسلاح شريناه نحن ودفعنا ثمنه مرتين !

نحن أعطيناهم الجنود الذين حاربونا بهم : أبناؤنا ، قلنا لهم خذوهم وخذوا بناتنا فعلموهم في مدارسكم ، ونشئوهم على مبادئكم ، واستعمروا عقولهم كيف شئتم ، فجعلوا من أبنائنا عدواً لنا ، يا أيها القراء في مشارق الأرض ومغاربها اعلموا أن الذي سرب الشام بالدافع (باذن أوليائها روجه وأمره) إنما هو رجل شامي ومسلم وابن شيخ واسمه (علاء الدين الإمام) !

* * *

فهل استيقظنا ؟ إذا لم توقظنا هذه الدافع الدموية ، إن لم ينبهنا لذع النار ، فما والله يوقظنا شيء ؟

هل علمتن يا آناتي ويا سيداتي الآن . أن هذا (الكتالوج) إنما هو (ديناميت) إن لحتفظتن به في دوركن دمر الدور وأهلها ؟ وإنكن حين تكشفن عن شيء من مواطن الفتنة في أجسامكن إنما تكشفن للعدو قلعة من قلاع الوطن ، لأن كشفها يفسد أخلاق الشباب فتذهب رجولتهم ويفقدهم روح الكفاح ، ويشغلهم عن الحرب بالحب ؟ وأن هذا الأحمر على خدودكن وشفاهكن إنما هو دم الشهداء ، لولاه ولولا أشباهه ما تمكن العدو منا ، وما كان ليغلبنا لولا أن أشاع علينا أخلاق محرائنا ، وشغلنا عنها بكن ، وشغلكن بهذا الأحمر عن كل واجب عليكن ؟

هل علمتم أيها الآباء أن من يضع ابنه في مدرسة عدو ، إنما يخون وطنه ودينه وربه ؟

وهل سمعتم أيها القراء اللعنة التي أطلقها في الشام ، خطباء على المنابر ، وأئمة في المحاريب ، فتجاوبت بصداها الأودية والشعاب :

ملعون كل من ينسى ما صنع بنا الفرنسيون ، ملعون كل من يحب فرنسياً أو يتزوج بعد اليوم فرنسية ، أو يشتري بضاعة فرنسية ، ملعون من يدخل ابنه أو بنته مدرسة فرنسية ، ملعون كل شركسي أكل خبزنا وحاربنا ، ملعون كل سوري أعان على بلده عدواً ، ملعون علاء الدين الإمام ، لعنة مجلجلة صارخة مستمرة متجددة ، متنقلة في البطون ، ماشية في الذراري ، لعنة الأم التي فجعها الفرنسيون بوحيدها ، واليتيم الذي أفقدوه أباه ، والزوجة التي أيّموها بعد زوجها ، والأسرة التي قتلوا ربها وخربوا دارها ، والتاجر الذي أحرقوا دكانه وسرقوا متاعه ، لعنة مغموسة بالدم ، مغسولة بالنار ...

(دمشق) **علي الطنطاوي**